نور طفلة لاجئة «بيتها» مغسل الموتى... تشبهني أو تشبه سوريا

هند رجّوب

أصوات قصف متقطع ومشاهد للدمار الهائل رسمت ملامح مدينتي حمص التي تعد مسقط رأسي. دخان أسود متصاعد من الريف الدمشقي أراه من شرفتي «الخائفة» التي تركتها على أطراف حي الميدان بدمشق حيث أعيش مع عائلتي. فقر بسبب الحرب وقصص تكاد لا تنتهي عن أرواح صعدت إلى السماء لن تكون لي أبداً مجرد أرقام. وجه سائق التاكسي الخائف الذي أقلنا من كراج السومرية شرق دمشق إلى نقطة عبور المصنع في لبنان. شريط ذاكرة كاد أن يعطب ويتوقف حين الوصول افتراضيا إلى البلد الآمن وتلك البيئة الحاضنة للسوريين حسب وصف بعض المعارضين أو حتى المؤيدين للنظام.

اعتقدت أن أشهرا قليلة قد تكون كافية لعودة الهدوء إلى دمشق أو إلى سوريا كلها. وأعلنت هنا في بلد وصفنا بالنازحين وليس باللاجئين أنني أبحث عن نساء أو أطفال بحاجة إلى مساعدتي كمعلمة، أو بحاجة إلى طرق الإرشاد إلى منظمات الإغاثة التي تساعد السوريين الهاربين من الموت.

السكن أصبح مؤمناً لي ولأمي، وكذلك جردة حساب لما نملكه من نقود قد تكفينا لتلك الأشهر التي اعتقدت أنها كافية حتى عودتنا إلى سوريا.

بدأت التعليم بعد أشهر من قدومي إلى لبنان كخيار أخلاقي تجاه الأطفال السوريين المنتشرين في القرى والبلدات القريبة من سكني. وحتى اليوم ورغم تلك الخيبة بمرور أكثر من عامين على الأحداث في سوريا لم تتوقف مشاهد الدمار والموت، فاكتشفت متأخراً أني كنت ساذجة التفكير عندما اعتقدت أن الأمور ستنتهي بأشهر.

من القصص المؤلمة التي شاهدتها خلال عملي التعليمي والإغاثي، قصة الطفلة نور، وهي طفلة سورية من حي الحجر الأسود في دمشق.

لم تعرف نور التي لم تتجاوز الثامنة من عمرها «مغسل» الموتى إلا بعد أن

وصلت مؤخرا مع عائلتها إلى لبنان هربا من قصف النظام لحي الحجر الأسود بدمشق.

قالت لي في المرة الأولى حين التقيتها بينما كانت تلعب قرب «مقصورة» الموتى: لقد نسيت «الدكان» والشراء منه و«ما معنى مصاري». تحاول الدخول والخروج من الباب الرئيس لمبنى غسل الموتى ولا ألعاب تذكر في المكان لطفلة نسيت معنى الفراغ أو حتى معنى المدرسة. فقط رائحة الموت وحده دخلت روحها وتغلغلت بين أغراض العائلة الموزعة هنا وهناك.

وأخذت أتقصد زيارة البلدة الصغيرة حيث تسكن نور لأرى ما حل بعائلتها، وهل تحقق حلم الأمان لطفلة لا تعنيها حروبنا أو حروب الآخرين.

كانت تسمع أطراف الحديث مع والدتها ووالدها «بدنا خيمة» طلب ردده والد نور عشرات المرات أمامي، عندئذ نام الحزن في عيون نور ونظرت إلى البعيد، أخبرني والدها آنذاك:» صار لنا في هذا المكان ما يقارب الأسبوع، حين هربت مع أطفالي من الحجر الأسود وبقيت زوجتي محاصرة هناك إلى أن حضرت منذ يومين وكما ترون هذا المكان لغسل الموتى».

آلاف الأطفال السوريين في لبنان يعانون مثل نور بدءاً من تحطّم طفولتهم من الجوع والفقر وندرة التعليم رغم كل ما يقال عن نشاطات الجماعات والمنظمات الأهلية.

قلت لنور لماذا لا تنامون في بيت غير هذا المكان «ابتسمت ولم تجب» صاحت بها والدتها بأن تجلب إبريق الشاي من «تحت» الطنجرة المركونة على «المقصورة»، غادرت مسرعة فقالت الوالدة: «منذ عامين زوجي لم يعمل كان يستدين من هنا وهناك وحين وصلنا لبنان لم يكن معنا إلا إيجار الطريق.. كيف لنا أن نستأجر بيتا».

مغسل الموتى كما رأيته مبعثراً بفوضاه يشبه حياة العائلة التي تسكن فيه حين هربت من الموت لتسكن في مكان يحمل الرائحة فقط، ألبسة مرمية على الأرض وشيء يشبه الطاولة وألبسة منشورة على حديد «المقصورة»، وحتى اليوم لا بديل مفرح لتلك العائلة، لا في السكن ولا بوجود لقمة العيش.

في جلسة مع والد الطفلة نور حكى لي عن الاتفاق الذي جرى بينه وبين أهل البلدة يقضي بأنه إذا توفي أحد من البلدة على عائلته أن تخرج أغراضها من المغسل وذلك لتتم مراسل الدفن، وبعد الدفن بإمكانهم أن يعودوا، وكل ذلك ريثما يؤمنون منزلا أو خيمة.

نـور أخبرتني همسـا حين كنـت أزورها ما بين فترة أو أخـرى بأنها.. تتمنى أن يبقـى الجميـع أحياء ولا يموت أحد في البلدة حتى يسـقط النظام وتعود إلى منزلها فـي حـي الحجر الأسـود... فكرة وربمـا حكمة وأمنيـة تنتهي حين تعلـن في الأيام المقبلة إذاعة مأذنة المسجد القريب: يا إخوان توفي اليوم.. أخوكم بالله.

لـم تكن قصة الطفلـة نور حكاية عابرة بالنسـبة لوجودي كلاجئـة في لبنان بل كانـت تختصر حالات لأطفال سـوريين ناموا وعائلاتهم فـي زرائب البقر وغرف لا تصلح لسكن الحيوانات.

خلال عودتي أو ذهابي إلى حالة سورية صعبة يكون قد أبلغني عنها زملاء لي أتخيـل أن البلاد وجغرافيتها قد أصبحت مغسـلا كبيرا للأموات الذين يسـقطون بلا طقوس ولا صلوات.

فالمـوت لغة واحدة في كل دول العالم إلا في بلدي، أصبح بلا لغة أو ملامح لا بل أصبح حياة لأشـخاص يعتقدون أنهم أحياء، فعدا عن كل شـيء أصبح الطفل السـوري «مصدر» منافسة للكثير من العاملين في المجال التعليمي والإغاثي وأصبح مصدرا للرزق وجلب النقود، إذ إن صور الأطفال السوريين تصدرت مواقع التواصل الاجتماعـي أو حتى المواقع الإخبارية، وأصبحت المنظمـات الدولية تجلب الكثير من مشاريع للأطفال السوريين.

كنـت أراها مشـاريع فارغـة الروح حين كنـت التقي الطفلة نـور، لا بل عديمة الجـدوى حيـن أنظـر إلـى وجهها الشـاحب الذي أخـذ من الجـدران لون القسـاوة والبؤس.

لم أسـتطع كسـورية لاجئة في لبنان أن أحمي الأطفال من الاسـتغلال أو حتى التحـرش أو حتـى أن أؤمّن لهـم الحماية التعليمية أو أمنهم الغذائي، لـم أسـتطع إلا الوقـوف بجانب حالات معـدودة وكأني أراوح في المكان، وعـادة ما تعود الصورة

المؤذيـة لروحي صورة سـحب الدخان القريب من شـرفتي بدمشـق أو صور الدمار الـذي حـوّل البلـد إلى جسـد منهك ومريـض لا يقـوى أن ينظر فـي وجوهنا، نحن السوريين العبوسين الطيبين.

بعد عامين من وجودي في لبنان أيقنت تماما أن العمل هنا أشبه بمعجزة لكثرة الكراهيـة في هذا البلد، وخصوصـاً تلك الكراهية التي خلّفتها أحزاب وشـخصيات عكسـت سـلوكها على اللاجئ السـوري ليصبح جزءاً من بلد مقسـم في المضمون ومتّحد في الشكل.

أبحـث عن طرق جديدة لزراعة الأمل عند الكثير من الأطفال وحين لا أجدها أيقـن تمامـا بأنـي فاقدة للأمـل في تلـك اللحظـات التـي أرى فيها وجـوه الأطفال السوريين في لبنان والتي بدت مؤخراً دون ملامح مثل الطفلة نور ومثلي أنا وكذلك مثل سـوريا تماما... ومـع كل ذلك أتابع البحث عن مجـرد صوت يحمل معي همّ الوطن... البعيد القريب.